

من مظاهر عبر النوعية وتجلياتها في الأدب العربي القديم: أدب المفاخرات البلدانية: البصرة والكوفة نموذجًا

عمر حمدان¹

الملخص:

ليس موضوع عبر النوعية في الأدب العربي القديم بغريب عنه ولا مستقصى منه، بل عرفه من قريب وتداوله بكثافة، إذ هو (عبر النوعية) بالأصالة وليد هذا الأدب الذي نَمَاهُ وَقَعَلَهُ وَسِيلَةً وغايةً في أن واحدٍ لِمَا يقدّمه من تعدديةٍ أدبيةٍ في أسلوبٍ متجانسٍ؛ فنرى على سبيل المثال أن أدب المفاخرات بين البلدان والأمصار ما كان له أن يتجلى بقوةٍ إلا من خلال عبر النوعية، إذ هو عبارة عن نسيج من ألوان وأطياف أدبيةٍ مستوحاةٍ من فنونٍ وعلومٍ شتى؛ ففي أدب المفاخرات يجرى الحديث عن الأخلاق الدينية والأنماط الاجتماعية التي يتحلّى بها أهالي البلد الواحد، كالقيم والسلوكيات ودور الجماعات والعلاقات والأنساب، كما يذكر فيه مراحل تاريخية، يفخر أصحابها بأدوار بطوليةٍ فيها مع مشاركات في أحداث ووقائعٍ مصيرية. يضاف إلى ذلك آستعراض العوامل الثقافية التي كان لها بالغ الأثر في تطوّر البلد وتقدمه على غيره، كالتفاخر بغزارة العلم وكثرة العلماء. ولا يغيب عن هذه الساحة التطرّق إلى موقع البلد وطبيعته وما له من تضاريس مميزة، كسعة السهول وجريان الأنهار، ثم ذكر العوامل الاقتصادية التي ينعم بها البلد من كثرة المداخل ووفرة المحاصيل. هذه الآداب على اختلافها وتنوعها تنصهر في قالب مفاخرة أدبية رفيعة المستوى في النظم والأداء عبر النوعية وقت الأداء والسرد.

يأتي هذا البحث ليقدم مظهرًا من مظاهر عبر النوعية في الأدب العربي القديم من خلال بعض المفاخرات الأدبية بين أهل البصرة وأهل الكوفة في بداية الخلافة العباسية.

(1) أستاذ التفسير وعلوم القرآن ومُشرف كرسيّ تدريس العلوم القرآنية، معهد العلوم الشرعية، جامعة تونغن، مدينة تونغن الجامعية، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

المقدمة:

إنّ استقرار قبائل عربيّة على اختلافها في الأمصار الإسلاميّة المفتوحة، كالكوفة والبصرة، واجتماع العديد منها وأشتراك سكنائها في البلد الواحد أزال إلى حدٍ كبيرٍ طابع العصبية القبليّة عنها وذوّبه من جهة وأظهر عصبيةً مؤلّدةً من جهة أخرى، هي عصبية الانتماء إلى الموطن الجديد والمصر الموحّد؛ فكان الانجذاب والانتماء إلى بلدٍ من البلدان ولادةً ونشأةً وتفضيلُهُ على غيره والمنافحةُ عنه والتعصُّبُ له وإبرازُ محاسنه دون مساوئه⁽¹⁾ من أهمّ العوامل التي أفضت إلى نشوء أدب المفاضلات البلدانيّة.

لا شكّ أنّ اختلاف التيارات المذهبيّة والمدارس الفكريّة والأحزاب السياسيّة عند أهالي كلّ مصر كان من أهمّ المصادر والموارد التي كانت تغدّي منظومة المفاخرات وتشعل فتيلها بين الحين والآخر. يضاف إلى ذلك وجودُ عوامل طبيعيّة، كتضاريس البلد الواحد سهولاً وجبالاً وأنهرًا وخصوصيّة أحواله المناخيّة، خاصّة خلوه من الأوبئة والأمراض، وتوافرُ عوامل اقتصاديّة فيه، تنهض بأقتصاده وتُعزِّزُ من استقراره ومكانته بين البلدان الأخرى. كذلك كان للثقافة والتربية ومستوى التعليم والتحصيل دورٌ بالغٌ في مجال التفاحُر والتفاضل بين البلدان.

لقد جرت مفاخراتٌ كثيرةٌ على سبيل المثال بين أهل العرّاقين (الكوفة والبصرة)⁽²⁾ وبين أهل

(1) العبد الكريم: خطاب المفاضلات النثرية 109-110.

(2) من المؤلّفات القديمة عنهما (كتاب فخر أهل الكوفة على البصرة) للهيثم بن عديّ (ت207هـ)، كما في الفهرست 129، و(كتاب مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة) للمدائنيّ (ت225هـ)، كما في الفهرست 134. من المقالات المعاصرة عنهما (صور ونصوص من المفاخرات بين البصرة والكوفة وما قيل عنهما في كتب التراث العربيّ) / محمّد كريم الشمريّ [مجلة القادسيّة للعلوم الإنسانيّة 2-1/8 (2005) 13-22]. للشمريّ مقال آخر، لا يختلف عن سابقه، بل هو هو، منشور بعنوان (شواهد ونصوص من المفاخرات بين البصرة والكوفة في التراث العربيّ) [مجلة الكلّيّة الإسلاميّة الجامعة 5 (2008) 7-28].

مكة والمدينة⁽¹⁾ وبين أهل دمشق وحمص⁽²⁾، وذلك للمجاورة المكانية والمنافسة المحليّة، هي مفارحات بلدانيّة، تعود بواكير ظهورها إلى صدر الإسلام. ثمّ بدأت المفارحات البدائيّة تتشكّل معالمها الأدبيّة مع الوقت، فأصبحت أدبًا قائمًا بذاته.

(1) من المؤلّفات عنهما (المنظرة بين مكة والمدينة) لعليّ بن يوسف الزرنديّ (ت772هـ) [تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح. [د.م.]: مكتبة الأسرة، ط1، [1993/1420]، (مفخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة) لمحمّد بن سليمان (ق8هـ) [تحقيق: محمّد الششتاوي. القاهرة: دار الآفاق العربيّة، ط1، 1999/1419، ص56]، (الحجج المُبيّنة في التفضيل بين مكة والمدينة) (ط) للسيوطيّ (ت911هـ) [تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش. دمشق/بيروت: اليمامة، ط1، 1985/1405، ص85].

جدير بالذكر أنّ المفارحات قد تقع بين جماعات البلد الواحد، كالأوس والخزرج بالمدينة المنورة، كما روى قتادة بن دعامة السدوسيّ (ت117هـ) عن الصحابيّ أنس بن مالك (ت93هـ)، رضي الله عنه، قال: «آفتخر الحَيَّان الأوسُ والخزرجُ؛ فقالت الأوسُ: منّا عَسيلُ الملائكةِ حنظلةُ بنُ أبي عامرٍ. ومنّا الذي حَمَتُهُ الدبرُ عاصمُ بنُ ثابتٍ. ومنّا الذي آهتَ لموته العرشُ سعدُ بنُ معاذٍ. ومنّا من أُجيزتْ شهادتُهُ بشهادةِ رجلينِ خزيمَةُ بنُ ثابتٍ؛ فقالت الخزرجُ: منّا أربعةٌ جمعوا القرآنَ على عهدِ رسولِ الله، ﷺ: أبيّ بنُ كعبٍ ومعاذُ بنُ جبلٍ وزيدُ بنُ ثابتٍ وأبو زيدٍ» [فضائل القرآن (لابن كثير) 159]: فالصحابيّ أنس كان خزرجيًا، وأبو زيد كان أحد عُموميّة [المصدر السابق 159].

(2) من أقدم الكتب المؤلّفة في تاريخ حمص وفضائلها وطبقات محدّثها: تاريخ حمص للقاضي يحيى بن جابر الحمصيّ (ت126هـ/744م)، تاريخ الحمصيّين لأبي بكر أحمد بن محمّد البغداديّ (كان حيًّا قبيل 257هـ/871م)، طبقات أهل حمص للحافظ محمود بن إبراهيم الدمشقيّ (ق3هـ/9م)، تاريخ من نزل حمص من الصحابة لأبي بكر بن صدقة (ت. أواخر 3هـ/9م)، معرفة الصحابة الذين نزلوا حمص للقاضي أبي القاسم عبد الصمد بن سعيد الحمصيّ (ت324هـ/936م) وتاريخ حمص لعبد الغافر بن سلامة الحمصيّ (ت330هـ/942م).

كانت المنافسة بين حمص ودمشق منذ صدر الإسلام وقد استمرّت عهدًا، كما وقعت في قرون لاحقة بينها وبين مدن شاميّة أخرى، مثل حماة. قد ألّف عبد القادر بن عبد اللطيف الرافعيّ (ت1230هـ/1815م) مقامة تفاخريّة بينهما بعنوان (مقامة في المفخرة بين حمص وحماة). لقد استندت هذه المعلومات ممّا ذكره رائد أمير عبد الله في بحثه بعنوان: (فضائل مدينة حمص في كتب التراث الإسلاميّ: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر أنموذجًا)، مجلّة التربية والعلم 2/20 (2013) 21-35.

له سماته الأدبية وأساليبه الفنيّة، قد آمتاز بطابعه الأدبيّ عن أدب الفضائل الذي يعوّد بواكيره أيضاً إلى صدر الإسلام وطغى عليه الطابع التاريخي-الدينيّ، إذ يُسلّطُ فيه الأضواء على المقدّسات والمزارات والمشاهد بالروايات والأخبار والقصص، مثل كتاب (فضائل بيت المقدس) للحافظ الوليد بن حمّاد بن جابر الرمليّ الفلسطينيّ (ق3هـ)⁽¹⁾.

البحث:

لتقريب الصورة وإظهار معالمها أخذ في هذا البحث كلّاً من البصرة والكوفة نموذجاً لأدب المفاخرات بين الأمصار الحديثة، وذلك من خلال قراءة مفاخرة نثرية واحدة وتحليل عناصرها في المضمون والأسلوب، أي قراءة توصيفيّة تحليليّة. بالطبع ثمة نصوص نثرية عديدة من هذا القبيل⁽²⁾، نَحْو ما قيل للحسن البصريّ (ت110هـ): (أَيْهَمَّا خَيْرٌ: أهل الكوفة أم أهل البصرة؟ فقال الحسن: كان يبدأ بأهل الكوفة)⁽³⁾، ونَحْو ما يُروى عن قرينه محمّد ابن سيرين (ت110هـ)، أحد كبار محدّثي أهل البصرة وفقهائها، بحق أهل الكوفة: (قدمتُ الكوفةَ وبها أربعة آلافٍ يطلبون الحديث، وسُرِّجُ أهل الكوفة أربعة: عبيدَةُ السِّلْمانيّ والحارثُ

⁽¹⁾ عنه تاريخ الإسلام (للذهبيّ) ط30/320 (538)، سير أعلام النبلاء (للذهبيّ) 78-79/14 (37). أمّا مكّة

والمدينة، فنحو (كتاب فضل المدينة على مكّة) للأبهريّ (ت375هـ)، كما في الفهرست 249.

⁽²⁾ منها مفاخرة نثرية بين بصريّ وكوفيّ بعددِ أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة، أوردها الجاحظ (ت255هـ) في مفاخرة الجوّاري والغلمان 118-117/2 [هي الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الجاحظ 137-91/2]. فيها أيضاً [هناك 119-118/2] مفاخرة مقتضبة بين عُباد البصرة والكوفة وُزَّهَّدهما ونُسَّاكهما. منها بعض المقاطع النثرية، ذكرها الجاحظ (ت255هـ) في البيان والتبيين 1/357، 2/93-94. منها أيضاً مفاخرة في أطيب أنواع الرُّطب والتمر بين خالد بن صفوان المِنْقَرِيّ ممثلاً عن البصرة وعبد الرحمن بن بشير العَجَلِيّ ممثلاً عن الكوفة في مجلس يزيد بن عمر بن هُبيرة الفزاريّ (ت132هـ/750م)، أمير العراقين في خلافة مروان بن محمّد (حكم 127-132هـ/744-750م)، آخر خلفاء بني أمية، أوردها ابن قتيبة (ت276هـ) في عيون الأخبار 1/220-221.

⁽³⁾ كتاب المعرفة والتاريخ (للبسويّ) 2/550.

الأعورُ وعَلَمَةُ بَنُ قَيْسٍ وَشُرَيْحٌ⁽¹⁾. يُلاحَظُ أَنَّ الرَوايَتَيْنِ جَاءتا على لسانِ آثْنَيْنِ من كبارِ علماء أهل البصرة لصالح أهل الكوفة، ليكون المفاد أكثر قبولًا وتصديقًا. أمّا التي وقع آختياري عليها، فلأنّها تعكس استمرار تداول هذا الفنّ وانتقاله تاريخيًا من فترة الخلافة الأمويّة إلى فترة الخلافة العبّاسيّة.

الأطراف المشاركة في المفاخرة:

الطرف الأول هو الخليفة العبّاسيّ أبو العبّاس السّفّاح⁽²⁾ (ت136هـ/754م) الذي كان بمثابة الحكم بين الأطراف فيما جرى بينهم من مفاخرة كلاميّة وبمنزلة العريف الذي أدار أطراف الحديث فيها. وكان تُعجِبُهُ مسامرةُ الرجال⁽³⁾.

الطرف الثاني هو الأخباريّ أبو بكر الهذليّ (ت167هـ)⁽⁴⁾ الذي مثّل فيها البصرة وأهلها. كان من أصحاب الإمام الحسن البصريّ (ت110هـ) الذي وقّى حقّ الإمام فيما أجاب به السّفّاح عن سؤاله: «بأيّ شيء بلغ حسنُكم ما بلغ؟ قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين! جمَعَ كتابَ الله وهو آبنُ اثنتي عشرة سنة؛ فلم يجاوز سورةً إلى غيرها حتّى يعرف تأويلها وفيما أنزلت. ولم يقلّب درهمًا في تجارةٍ. ولم يَلِ لسلطانٍ إمارةً. ولم يأمر بشيءٍ حتّى يدعّه؛ فقال: بهذا بلغَ الشيخُ»⁽⁵⁾. وهذا بالطبع ممّا كان يفخر به أهل البصرة على غيرهم.⁽⁶⁾

(1) تهذيب الكمال (للمزيّ) 439/12 [ترجمة شرح القاضي]. يُقابل كتاب المعرفة والتاريخ 557/2.

(2) هو عبد الله بن محمّد بن عليّ، أوّل خلفاء بني العبّاس. عنه تاريخ القُضاعيّ 255-257، سير أعلام النبلاء 80-77/6 (18)، العبر (للذهبيّ) 142/1، تاريخ الخلفاء (للسيوطيّ) 206-208، الأعلام (للزركليّ) 116/4.

(3) شذرات الذهب (لابن العماد الحنبليّ) 166/2.

(4) هو سُليّ بن عبد الله بن سُليّ البصريّ. عنه تهذيب الكمال 161-159/33 (7268)، تاريخ الإسلام ط. 677-676/16 و ط. 540-539/17 (458)، العبر 162/1.

(5) كتاب نور القبس (لليغموريّ) 41.

(6) هذا على مستوى مشاهير علمائهم، كالإمام الحسن البصريّ الذي تخرّج من عنده أعلام كبار، كانوا مفخرة أهل البصرة. قال العجليّ (ت261هـ) في تاريخ الثقات 270: «أهل البصرة يفخرون بأربعة: أيوب السخيتيّ وعبد الله بن عون وسليمان التبيّ ويونس بن عبيد». أمّا على مستوى النتاج العلميّ، فكانوا

الطرف الثالث والمقابل للثاني هو أهل الكوفة الذين مثلهم آثنان من أعلامها الكبار في الفقه والفتيا. الأول محمّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (ت148هـ/765م)⁽¹⁾، مفتي الكوفة وقاضيا. كان نظيراً للإمام أبي حنيفة في الفقه. الثاني الحجّاج بن أرطاة بن ثور النَّخَعِيّ (ت145هـ/762م)⁽²⁾، مفتي الكوفة مع الإمام أبي حنيفة والقاضي آبن أبي ليلى. قد ولي قضاء البصرة ثلاثة أشهر وكان على شُرْطِ الكوفة فترة. كان فيه بأُوْتِيَةٌ ومحبّة للسُّودد والتجمل. الطرف الرابع والأخير هو الحسن بن زيد بن الحسين (ت168هـ/784م)، من الأشراف الهاشميين⁽³⁾. قد شارك في هذه المفاخرة مخصصاً لأهل البصرة بمدخلة، لكنّه ليس من عداد أهل الكوفة، بل من أهل المدينة التي وُلد بها وكانت وفاته بالحاجر على خمسة أميال منها في طريقه إلى الحجّ مع المهديّ (ت158هـ/775م).

تاريخ المفاخرة:

من الصعب تحديدها باليوم والشهر والسنة، لكن من المفروض أن تكون قد جرت في مدّة خلافة السَّقّاح (حكم 132-136هـ/749-754م)⁽⁴⁾، ولا تخرج عن ذلك، لأنّه أقدم المشاركين فيها موتاً.

يفخرون بنفاسة نتاجهم على غيرهم. جاء في معرفة القراء الكبار 1/435 «كان يُقال: أهلُ البصرة يفخرون على أهل الدنيا بكتاب سيبويه وكتاب الحيوان للجاحظ وكتاب القراءات لأبي حاتم». قال الأهوازيّ (ت446هـ) في ترجمة أبي حاتم السجستانيّ (ت255هـ) في كتاب الإقناع 233 «صنّف كتابه الكبير في القراءات في أربعين سنة. ويُقال: إنّ مصنّفات الإسلام أربعة. هو أحدها».

(1) عنه سير أعلام النبلاء 6/310-316 (133)، غاية النهاية 2/165 (3114)، الأعلام 6/189.

(2) عنه تاريخ الإسلام ط100-104، سير أعلام النبلاء 7/68-74 (27)، الأعلام 2/168.

(3) عنه الأعلام 2/191.

(4) كانت بيعته في ربيع الأوّل سنة 132هـ إلى أن مات بالجُدريّ في ذي الحجّة سنة 136هـ؛ فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، أي دون الخمس سنين. يُراجِع تاريخ القضاة 255.

مكان آنعقاد المفاخرة:

ليس في المفاخرة إشارة إلى موقع آنعقادها، لكن إذا كانت قد جرت في النصف الثاني من مدة خلافته التي كانت دون الخمس سنين، فعلى الأرجح في قصر مدينته التي بناها بالأنبار وسمّاها بالهاشمية وجعلها دار الخلافة إلى أن توفيّ بها⁽¹⁾. لأنّه كان قد تحوّل من الحيرة منتقلًا إلى الأنبار في سنة 134هـ⁽²⁾. أمّا النصف الأوّل منها، فلم تكن أحواله السياسيّة قد استقرّت تمامًا خلاله، فحوّل إقامته أكثر من مرّة، فكان أوّل نزوله في مدينة آبن هُبيرة⁽³⁾ التي تركها الأخير غير مُستتمّة آمتثالًا لأمر الخليفة مروان الثاني (حكم 127-132هـ). آخر خلفاء بني أمية، بآجتنباب مجاورة أهل الكوفة، وآستتمّها وسمّاها الهاشمية، ثمّ إنّه لما رأى أنّ ذكّر آبن هُبيرة لا يسقط عنها، إذ كان الناسُ ينسبونها إليه، بنى حيالها (المدينة الهاشمية) ونزلها، ثمّ كان آخرُ نزوله بالأنبار التي بنى بها مدينته المعروفة بمدينة آبي العباس وأيضًا بالهاشمية⁽⁴⁾.

نصّ المفاخرة:

نصّها منقول عند الحافظ اليغموريّ (ت673هـ) في كتاب نور القبس (ط) - وهو المختصر من (المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء) لأبي عبيد الله المرزبانيّ (296-384هـ)، يشكّل جزءًا (من أخبار آبي بكر الهذليّ)⁽⁵⁾. ها هو كآلآتي:

(1) عن مدينته يُنظر تاريخ القضاة 255، تاريخ الخلفاء 207، شذرات الذهب 159/2، الأعلام 116/4 و117.

(2) البداية والنهاية (لابن كثير) 5/57، تاريخ الخلفاء 207.

(3) هو أبو خالد يزيد بن عمر بن هُبيرة الفزاريّ (87-132هـ/706-750م)، من ولاة بني أمية. ولي قنسرين للوليد بن يزيد. ثمّ جمعت له ولاية العراقين (الكوفة والبصرة) سنة 128هـ في خلافة مروان بن محمد (حكم 127-132هـ/744-750م). عنه الأعلام 8/185.

(4) فتوح البلدان (للبلاذريّ) 403.

(5) كتاب نور القبس 40-46 (11).

«قال أبو بكر الهذلي: آجتماعنا عند أبي العباس السفاح، ولم يكن من أهل البصرة غيبي. وكان من أهل الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى والحجاج بن أرتاة، وحضر الحسن بن زيد؛ فذكروا أهل البصرة وأهل الكوفة؛ فقال ابن أبي ليلى: نحن، والله، يا أمير المؤمنين، أكثر منهم خراجاً [42] وأوسع أنهاراً؛ فقال السفاح: ذاك، إن رضي أبو بكر. قال: قلت: معاذ الله! وكيف يكون ذلك ولنا البسند والهند وكرمان ومكران والقرض والقرض والديار وسعة الأنهار؟ فقال ابن أبي ليلى: نحن أكثر منهم فقهاً وأغزر علماء. مقر بذلك أهل البصرة لأهل الكوفة، كما أقر أهل مكة لأهل المدينة؛ فقال أبو بكر: هم أكثر أنبياء وأقل أتقياء وأعظم كبرياء. منهم المغيرة الخبيث السريرة وبيان وأبو بيان. وتنبأت فيهم الأنبياء. والله ما أتانا إلا نبي واحد، ﷺ. والله ما رأيت بلداً قط أكثر نبياً مصلوباً ولا رأساً مضروباً من أهل الكوفة؛ فقال الحسن بن زيد: أنتم أصحاب علي يوم سرتم إليه، لتقتلوه؛ فقال أبو بكر: نحن والله أصحاب علي يوم سرنا، لنقتله، فكف الله أيدينا وشوكتنا عنه وعن غيره. وسار إليه أهل الكوفة، فقتلوه؛ فأئنا أعظم ذنباً؟ فقال الحجاج بن أرتاة: لقد أخبرني بعض أشياخنا أن أهل البصرة كانوا يومئذ ثلاثين ألفاً؛ فلما آلتقت خلقتا البطان وتناهد النهدان وأخذت الرجال أقرانها، فما كانوا إلا كرماد في يوم عاصف؛ فقال أبو بكر: كيف يكون ذلك وخرجت ربيعة سامعة مطيعة، تعين علياً، وخرج الأحنف بن قيس في سعد والرباب وهم السنام الأعظم والجمهور الأكبر، يعين علياً؛ ولكن سل هؤلاء كم كان عدتنا يوم استعانوا بنا! فلما آلتقت خلقتا البطان وتناهد النهدان وأخذت الرجال أقرانها، شدخنا منهم في صعيد واحد سبعة آلاف، نقتلهم قتل الحمنان. يعني القرذان الصغار؛ فقال ابن أبي ليلى: نحن أشرف منهم أشرافاً وأذكراً منهم أسلافاً. مقر بذلك أبو بكر؛ فقلت: معاذ الله! هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيس في تميم البصرة الذي يقول له الشاعر؟ [من الوافر]

إِذَا الْأَبْصَارُ أَبْصَرَتْ ابْنَ قَيْسٍ ۖ ۖ ۖ ظَلَلْنَ مَهَابَةً مِنْهُ خُشُوعًا

[43] وهل كان في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم في قيس البصرة الذي يقول فيه الشاعر؟ [من الخفيف]

كُلَّ عَامٍ يَحْوِي فُتَيْبُهُ نَهْبًا ○○○ وَيَزِيدُ الْأَمْوَالَ مَالًا جَدِيدًا
دَوَّحَ الْأَسْغَدَ بِالْقَنَايِلِ حَتَّى ○○○ تَرَكَ الْأَسْغَدَ بِالْعَرَائِ قُعُودًا
بَاهِلِيًّا قَدْ عُصِبَ النَّجَاحَ حَتَّى ○○○ شَبِنَ مِنْهُ مَفَارِقُ كُنَّ سُودًا

وهل كان في أزد الكوفة مثل المهلب في أزد البصرة الذي يقول له الشاعر؟ [من الطويل]

إِذَا مَا خَشِينَا مِنْ أَمِيرٍ ظَلَامَةً ○○○ أَمَرْنَا أَبَا عَسَانَ يَوْمًا فَعَسَكَرَا

وهل كان في بني قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود في قيس البصرة الذي يقول له الشاعر؟ [من الرجز]

أَنْتَ الْجَوَادُ بِنُ الْجَوَادِ الْمُحْمُودُ ○○○ سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودُ

فَانْقَطَعُوا كُلَّهُمْ، وَضَحَكَ السَّقَاخُ حَتَّى ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذِهِ الْغَلْبَةِ قَطُّ»⁽¹⁾.

تحليل نصّ المفاخرة:

واضح من بدايتها أنّ راوي هذه المفاخرة هو أبو بكر الهذليّ، أحد الأطراف المشاركين فيها، قد حضرها بنفسه وشارك فيها بردوده. بذلك يشكّل مصدرًا رئيسًا ومباشرًا لهذه المفاخرة الكلاميّة، فهو ينقل مباشرةً ما جرى بين الأطراف مع تفاصيل غزيرة ودقيقة. بالمقابل لا يجوز التغافل عن حقيقة أنّ هذه المفاخرة برواية بصريّة، إذ راويها في عداد أهل البصرة، له مصلحة عليا في تقديم صورة مثلى من الافتخار والاعتزاز هي لصالح أهل بلده على حساب الطرف الآخر المنافس.

1) واضح من كلامه (فَدَكَّرُوا أَهْلَ الْبَصْرَةَ وَأَهْلَ الْكُوفَةِ) أنّ الموضوع عن مفاخرة بلدانيّة بين مصريّين متجاوزين في جنوب العراق، هما البصرة والكوفة؛ فكانت أوّل مفخرة بادر إليها طرف الكوفة ممثلاً بالقاضي ابن أبي ليلى الذي توجه بها إلى الخليفة ذات طابع اقتصاديّ،

(1) كتاب نور القبس 41-43.

وذلك على وجهين: (نَحْنُ، يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرُ مِنْهُمْ خَرَجًا)، أي كثرة الأموال والضرائب المجلوبة، ثم عطفها (وَأَوْسَعُ أَنْهَارًا)، أي سعة الأراضي الزراعية وما يدرّ به محاصيلها من دخول كبيرة. هنا قد جمع ابن أبي ليلى في جملة واحدة مع استعماله صيغة التفضيل مرتين فيها أهمّ العوامل الاقتصادية التي ينعم به أهل الكوفة.

هنا توجه الخليفة مديراً للاجتماع وحاكماً بين الطرفين إلى الهذلي بقوله: (ذَلِكَ، إِنْ رَضِيَ أَبُو بَكْرٍ)، أي ذلك منوط بموقف الهذلي؛ فجاء ردُّ الأخير على ذلك بالسلب المطلق (معاذ الله) - توظيف أسلوب الاستبعاد المطلق باستعمال هذه العبارة التي سيكررها في موضع لاحق، لأن ما للكوفيين في المجال الاقتصادي محدود ضيق بنظره، إذ آقتصاد أهل البصرة أضعافٌ مضاعفة لما يتبعها إدارياً من نواحٍ واسعة وولايات عريضة، تمتدّ عبر فارس، كناحية مُكْران المطلّة على البحر والواقعة بين كِرْمَان من غربها وسجستان شمالها والبحر جنوبها والهند في شرقها إلى أن تصل بلاد الهند والسند. وقد عبّر عن ذلك بصيغة الاستفهام الاستنكاري بقوله: (وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَلَنَا السِّنْدُ وَالْهِنْدُ وَكِرْمَانُ وَمُكْرَانُ وَالْقَرْضُ وَالْفَرْضُ وَالذِّيَارُ وَسَعَةُ الْأَنْهَارِ؟)، وأشار في وسطه إلى وفرة الأموال وكثرتها: (والقرض والفرض)، فالأول ما يلزم إعطاؤه والآخر ما لا يلزم إعطاؤه.

2) التفاخر بغزارة العلوم وكثرة العلماء:

ثمّ أنتقل ابن أبي ليلى إلى مفخرة ثانية، لا يمكن بنظره لأهل البصرة إنكارها، بل إقرارها لكونها من الأمور الشائعة المعروفة عنهم، هي التحصيل الثقافي والعلمي بمصطلحنا المعاصر: (نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فِقْهًا وَأَعَزُّ عِلْمًا)، ثمّ استبق الحكم فيما قاله: (مُقَرَّرٌ بِذَلِكَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ)، وذلك ليحول دون أن يتوجه الخليفة إلى الطرف الآخر (الهذلي)، كما صنع في المرّة الأولى، وليحسم الأمر سلفاً لصالح الكوفيين مع دعم وتقوية على طريق الموازة (كَمَا أَقَرَّ أَهْلُ مَكَّةَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ).

بالفعل ما كان للهذلي أن ينكرها، فبردها، بل تحوّل عنها إلى ذكر بعض مثلهم الأخلاقية والسلوكية التي تعطلّ بدورها ما آفتخر به أهل الكوفة؛ فماذا تنفعهم غزارة العلوم وكثرة

العلماء فيهم، إذا كانوا على مفسدة من الأخلاق والسلوك، وذلك بآنسلاخهم عن الخشية والتقوى (أقلُّ أتقياء) وتعاطيهم الكبرياء (وأعظمُ كبرياء)؛ فخلوُّ التقوى وتعاطمُ الكبرياء فيهم كانت نتيجة أن ذهب بعض أهل الكوفة إلى آدعاء النبوة (وتنبأت فيهم الأنبياء)، فذكر الهذليُّ ثلاثةً منهم، أي أتى بشواهد تاريخية ثلاثة، لتكون حجته عليهم من واقع تاريخهم الذي يعرفونه تمام المعرفة، لا من باب التحامل عليهم غير المبرر، فقال: (منهم المغيرةُ، الخبيثُ السريّة، وبيانٌ وأبو بيان)؛ فمثاله الأول هو المغيرة بن سعيد البجليّ (ت119ه/737م)، وأتباعه يعرفون بالمغيرة. كان قد آدعى النبوة وعلمه بالاسم الأعظم وزعم أنه يُحْيي به الموتى ويهزم به الجيوش؛ فلما سمع والي العراقين (الكوفة والبصرة) خالد بن عبد الله القسريّ (ولهما 105-120ه، ت126ه)⁽¹⁾ بخبره وضلالاته، طلبه وقتله.⁽²⁾

أمّا مثاله الثاني والثالث الأخير (بيان وأبو بيان)، ففيهما إشارة صريحة إلى أنّ مسألة آدعاء النبوة لم تكن عندهم بظاهرة عارضة، بل متكررة، وراثية متجددة. فبيان ترجم له الذهبيّ ترجمة، كالآتي: (بيان بن سمعان التّيميّ الهنديّ: لعنه الله. ظهر بالعراق، وقال بالهبة عليّ، ﷺ، وأنّ فيه جزءًا من الألهيّة، متّحدًا بناسوته، ثمّ تحوّل من بعده في آبنه محمّد بن الحنفيّة ثمّ في ولده أبي هاشم ثمّ من بعده في بيان، يعني نفسه. ثمّ إنّ كتب كتابًا إلى أبي جعفر الباقر يدعوه إلى نفسه وآته نبيّ. قتله خالد بن عبد الله القسريّ، أمير العراق)⁽³⁾. وقد خصّص عبد القادر البغداديّ (ت429ه) له ولأتباعه المعروفين بالبيانيّة فصلًا في كتابه عن الفرق⁽⁴⁾، جاء فيه: (رُفِعَ حَبْرُ بِيانِ هَذَا إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ فِي زَمَانِ وَلايْتِهِ فِي الْعِرَاقِ؛ فَاحْتَالَ عَلَى بِيانِ حَتَّى ظَفَرَ بِهِ وَصَلَبَهُ)⁽⁵⁾. أمّا والده (أبو بيان)، فهو

(1) عنه الأعلام 297/2.

(2) للمزيد عن ذلك يُرَاجَع الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرْقِ (لعبد القادر البغداديّ) 210-213.

(3) تاريخ الإسلام ط330/12 (330).

(4) الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرْقِ 208-209 (الفصل الثاني من فصول هذا الباب في ذكر البيانيّة من الغلاة وبيان خروجها عن فرق الإسلام).

(5) الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرْقِ 208.

سمعان، كما ورد في ترجمة آبنه، لا معلومات عنه متوافرة، ممّا يرفع من قيمة المعلومة المذكورة في هذه المفاخرة.

من هنا شاعت بكثافةٍ عند أهل الكوفة ظاهرة الصلب، صلب الأنبياء الكذّابين، وضرب أعناق أتباعهم؛ وهو قوله: (وَاللّٰهُ مَا رَأَيْتُ بَلَدًا قَطُّ أَكْثَرَ نَبِيًّا مَّصْلُوبًا وَلَا رَأْسًا مَّضْرُوبًا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ).

يُلاحَظُ هنا العملُ ببعض اللوازم الأسلوبية، مثل استعمال صيغة التفضيل (أَفْعَل) التي يلجأ إليها المفاضل لتعزيز مواقفه الخطابية؛ فهي أقرب الصيغ وأسرع الأدوات تناولاً للمدح أو الذمّ. تعدّ هذه اللازمة الأسلوبية من أبرز الخصائص الفنيّة للمفاضلات البلدانية⁽¹⁾.

كذلك يُلاحَظُ أسلوب العطف، عطف الجمل والأوصاف، غرض تعداد المحاسن أو المساوي على وتيرة واحدة ونسق مسجوع لما له من بالغ الوقع والتأثير في أنفس المخاطبين. بالمقابل أهل البصرة على خلاف أهل الكوفة بنظر الهذليّ، فهم أصحاب أخلاق مهذّبة، لا يميلون في طباعهم إلى الشقاق والنفاق ولا التحزيب والتفريق، بل كفاهم مرّة واحدة أنّ أتاهم نبيٌّ واحد بدعوته، هو نبيّ الإسلام، فأخذوا برسالته وتمسّكوا بهديه. هذا معنى قول الهذليّ: (وَاللّٰهُ مَا أَتَانَا إِلَّا نَبِيٌّ وَاحِدٌ، ﷺ).

3) الطعن والجرح بالآخر:

قول الحسن بن زيد الهاشمي: (أَنْتُمْ أَصْحَابُ عَلِيٍّ يَوْمَ سَرْتُمْ إِلَيْهِ، لِنَقْتُلُوهُ): نسب بذلك إلى أهل البصرة مثلبة عظيمة الشأن، هي سوء نيّتهم آتجاه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (حكم 35-40هـ/656-661م)، رضي الله عنه، هدف قتله والغدر به.

جاء ردّ الهذليّ على كلامه بالإقرار: (نَحْنُ وَاللّٰهُ أَصْحَابُ عَلِيٍّ يَوْمَ سَرْنَا إِلَيْهِ، لِنَقْتُلَهُ)، هذه نيّتنا التي بيّتناها، ذنب عظيم، لكنّ الأمور بخواتيمها ومآلاتها، فلم نقاتله ولم نقتله، (فَكَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَنَا وَشَوْكَتَنَا عَنْهُ وَعَنْ عَمْرِهِ)، يقصد أنّ الله لطف بهم، وما كان ليلطف بهم، لولا

(1) خطاب المفاضلات النثرية 117.

محبته لهم، بينما أهل الكوفة لم يبيتوا له نية القتل، لكنهم - لما سار إليهم مستنصرًا بهم - غدروا به وقتلوه في المطاف الأخير (وسار إليه أهل الكوفة، فقتلوه). وهذا - كما يفهم الهذلي - لبغض الله لهم، وإلا لحال بينهم دون أن يقتلوه؛ فاستفهم عليهم باستفهام إنكاري: (فَأَيْنَا أَعْظَمُ ذُنْبًا؟).

4) التفاخر بالشجاعة والإقدام في الحرب وكثرة العتاد:

لا يزال الكلام عن وقعة صفين التي طالت مائةً وعشر أيام (110)⁽¹⁾، كان بين المعسكرين تسعون وقعةً (90)، قُتل فيها من عسكر معاوية خمسةً وأربعون ألفًا (45000) من جملة مائة ألفٍ وعشرين ألفًا (120000)، وقُتل من أهل العراق خمسةً وعشرون ألفًا (25000) من جملة تسعين ألفًا (90000)⁽²⁾؛ فذهب الحجاج بن أرقطاة من جهته إلى تضعيف مشاركة البصريين القتالية في صفين رغم كثرتهم (لقد أخبرني بعضُ أشياخنا أنّ أهل البصرة كانوا يومئذٍ ثلاثين ألفًا)، فلم يصمدوا البتة وقت القتال (فَلَمَّا أَلْتَمَّتْ حَلَقَتَا الْبُطَانِ وَتَنَاهَدَ الْتَهْدَانِ وَأَخَذَتِ الرَّجَالُ أَقْرَانَهَا)، فأبيدوا بضربة واحدة عن بكرّة أبيهم لضعفهم في المحاربة (فَمَا كَانُوا إِلَّا كَرَمَادٍ فِي يَوْمٍ عَاصِيفٍ): فجاء تعبير الحجاج عن ذلك في غاية البلاغة، فوظف المثل (أَلْتَمَّتْ حَلَقَتَا الْبُطَانِ) الذي يُضْرَبُ، إذا اشتد الأمرُ وعظم الخطبُ، فعضدهُ بعطف الجملة (وتَنَاهَدَ الْتَهْدَانِ)، كناية عن التقاء الجمعين (جماعة عليّ وجماعة معاوية) ووقوع الالتحام بينهما، ثمّ قوّاهُ بجملة معطوفة أخرى (وَأَخَذَتِ الرَّجَالُ أَقْرَانَهَا)، كناية عن المبارزات وتصادم صفوف المقاتلين.

جاء ردّ الهذليّ على ذلك بالاستبعاد والإنكار بصيغة الاستفهام الإنكاريّ بقوله: (كَيْفَ يَكُونُ

(1) فيما ذكر غير واحد، كما في البداية والنهاية 275/7/4. ثمّ قال الحافظ ابن كثير هناك [البداية والنهاية 275/7/4]: (مقتضى كلام أبي مخنف أنّه كان من مستهلّ ذي الحجة في يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من صفر، وذلك سبعة وسبعون يومًا؛ فالله أعلم). عليه يجب تصحيح قوله: (لثلاث عشرة خلت) إلى (لثلاث عشرة بقين).

(2) تاريخ القضاة 192. يُقابل البداية والنهاية 275/7/4.

ذَٰلِكَ وَخَرَجَتْ رَبِيعَةُ سَامِعَةً مُطِيعَةً، تُعِينُ عَلِيًّا، وَخَرَجَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فِي سَعْدٍ وَالرَّبَابِ وَهُمْ أَسَنَامُ الْأَعْظَمِ وَالْجُمُهورُ الْأَكْبَرُ، يُعِينُ عَلِيًّا؟). يشهد له فيما قاله ما تورده مصادر التاريخ من أنّ ربيعة بالمقارنة مع غيرهم من القبائل ثبتوا في قتالهم وأبلوا بلاءً حسناً في القتال. من ذلك:

(كان فيما بين الميمنة إلى موقفِ عليّ في القلبِ أهلُ اليمن؛ فلما آنكشفوا، آتته الهزيمة إلى عليّ، فأنصرف عليّ يمشي نحو الميسرة، فآنكشفت عنه مَضْرُ من الميسرة وثبتت ربيعة [...] فلما وصلَ إلى ربيعة، نادى بصوتٍ عالٍ كغَيْرِ المكثِرِ لِمَا فِيهِ النَّاسُ: لِمَنْ هَذِهِ الرِّايَاتُ؟ قالوا: رايَاتُ ربيعة. قال: بل رايَاتُ، عَصَمَ اللهُ أَهْلَهَا، فَصَبَّرَهُمْ وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ [...] ولما آتته عليّ إلى ربيعة، تَنَادَوْا بَيْنَهُمْ: يَا رَبِيعَةَ! إِنْ أُصِيبَ فِيكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَفِيكُمْ رَجُلٌ حَيٌّ، أَفْتَضِّحْتُمْ فِي الْعَرَبِ؛ فَقاتلوا قتالاً شديداً، ما قاتلوا مثله؛ فلذلك قال عليّ⁽¹⁾ فيهم، فذكر له ستة أبيات، آخرها:

(ربيعة أعني أنهم أهلُ نَجْدَةَ ٠٠٠ وبأسٍ إذا لاقوا خَمِيْسًا عرمرما).

ثمّ آستدرك الهذليّ على الحجّاج بعدما دحض ما قاله، فتحوّل من مدافع إلى مهاجم مبادر بتوجيه استفهام إنكاريّ إلى ممثلي أهل الكوفة: (ولكن سلّ هؤلاء كم كان عدّتنا يوم آستعانوا بنا!)، أي آسال هؤلاء الثلاثة كم كان عتادنا يومها. صحيح - بنظر الهذليّ - أنه كنا نشكل جزءاً من جماعة عليّ - هوثلث جماعته التي شاركت في صقّين وبلغت تسعين ألفاً، لكن بالمقابل كانت عدّتنا وفيرة وفعّالة؛ فحالما آلتقى الجمعان - هنا آستخدم الهذليّ جملة الحجّاج السابقة، فكرزها (فَلَمَّا آلْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ وَتَنَاهَدَ التَّهْدَانِ وَأَخَذَتِ الرِّجَالُ أَقْرَانَهَا)، تمكّنا من إصابة سبعة آلاف من جماعة معاوية في صعيدٍ واحدٍ، نقلهم أشدّ قتلة، قتل صغار القردان التي تتعلّق بالبعير وغيره؛ وهو قوله: (شَدَخْنَا مِنْهُمْ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ سَبْعَةَ آلافٍ، نَقَلْنَاهُمْ قَتْلَ الْحَمَّانِ. يَعْنِي الْقِرْدَانَ الصِّغَارَ).

(1) الكامل في التاريخ (لابن الأثير) 179/3. يُنظر المصدر ذاته 185/3، 189.

5) التفاضل والاعتزاز بالأنساب والأحساب:

(قَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ أَشْرَافًا وَأَذْكَرُ مِنْهُمْ أَسْلَافًا. مُقَرَّبًا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ)

يتكرّر هنا ظهور اللازمة الأسلوبية (صيغة التفضيل) وأسلوب عطف الجمل بعضها على بعض، كما يظهر أسلوب استباق الحكم والتوكيد عليه (مُقَرَّبًا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ). من جهته لم يقبل الهذليّ بقوله ولم يقربه (فقلتُ: معاذ الله!)، حيث وظّف هنا أسلوب الاستبعاد المطلق مرّة أخرى، بل ذهب يعدّد عليّة القبائل العربيّة في المصرّين من باب الموازنة بينهما مع تقديم كبار أشرافها وأسيادها من أهل البصرة مستشهدًا بأشعار من المديح قيلت بحقّهم، تشهد له على صدق ما زعمه. كلّ ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاريّ الذي يمكن إدراجه ضمن الأجوبة المفحمة أو المسكتة التي تشكّل بدورها أحد القوالب النثرية في لغة المفاضلات البدائية.⁽¹⁾

بدأ الهذليّ بذكر قبيلة تميم، فقال:

(هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيس في تميم البصرة الذي يقول له الشاعر؟)

إِذَا الْأَبْصَارُ أَبْصَرَتْ آبِنَ قَيْسٍ ○ ○ ○ ظَلَّلْنَ مَهَابَةً مِنْهُ خُشُوعًا

فالأحنف بن قيس هذا (ت72هـ)⁽²⁾ سيّد تميم، من كبار التابعين وأشرافهم، أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. قد أسلم في حياة النبي، ﷺ، ولم يره، ووفد على الخليفة عمر، ﷺ. كان سيّدًا مطاعًا في قومه، فصيحًا مفوّهًا، يضرب بحلمه المثل، وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان. قد آتزل الفتنة يوم الجمل. كان من أمراء عليّ، ﷺ، يوم صفين. شهد الفتوح في خراسان وولياها، ثمّ وفد على مصعب بن الزبير، أمير العراقيين من قبيل أخيه، إلى الكوفة، فتوقّى بها وهو عنده.

(1) خطاب المفاضلات النثرية 114 (5).

(2) عنه تاريخ الإسلام ط7/71 (1) و ط8/345-353، البداية والنهاية 4/326-328، الأعلام 1/276-277.

بعد ذلك ذكر الهذلي قبيلة قيس بقوله:

(وهل كان في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم في قيس البصرة الذي يقول فيه الشاعر؟)

كُلَّ عَامٍ يَحْوِي فُتَيْبَةً نَهَبًا ○ ○ ○ وَيَزِيدُ الْأَمْوَالَ مَالًا جَدِيدًا
دَوَّحَ الْأَسْغَدَ بِالْفَنَابِلِ حَتَّى ○ ○ ○ تَرَكَ الْأَسْغَدَ بِالْعَرَاءِ قُعُودًا
بَاهِلِيًّا قَدْ عَصَبَ الْتَّاجَ حَتَّى ○ ○ ○ شَبَنَ مِنْهُ مَفَارِقُ كُنَّ سُوْدَاً

فقتيبة بن مسلم هذا (ت99هـ)⁽¹⁾ كان أمير خراسان كلها عشر سنين. قد آفتح خوارزم وبخارى وسمرقند ثم آفتح منطقة وادي فرغانة وبلاد الترك. كان من الشجاعة والحزم والرأي بمكان. قال ابن كثير الدمشقي (ت774هـ) في ترجمته: (من سادات الأمراء وخيارهم. وكان من القادة النجباء الكبراء والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة. وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله، عز وجل. وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كثيرًا)⁽²⁾. من جهته قال الذهبي (ت748هـ) في حقه: (قتيبة لم ينل ما ناله بالنسب، بل بالشجاعة والرأي والدهاء والسعد وكثرة الفتوحات)⁽³⁾.

تلاها ذكر قبيلة الأزد:

(وهل كان في أزد الكوفة مثل المهلب في أزد البصرة الذي يقول له الشاعر؟ [من الطويل])

إِذَا مَا حَشِينَا مِنْ أَمِيرٍ ظُلَامَةً ○ ○ ○ أَمَرْنَا أَبَا عَسَانَ يَوْمًا فَعَسَكْرًا

فالمهلب هو ابن أبي صفرة الأزدی (ت82هـ)⁽⁴⁾، أحد أشراف أهل البصرة ووجههم وفرسانهم وأبطالهم ودعاتهم وأجوادهم. له مواقف حميدة وغزوات مشهورة. غزا أرض الهند سنة

(1) عنه البداية والنهاية 5/167-169، تاريخ الإسلام ط456-454/10 (376).

(2) البداية والنهاية 5/167-168.

(3) تاريخ الإسلام ط456/10.

(4) له ترجمة في البداية والنهاية 5/42-43، تاريخ الإسلام ط207-205/9 (150).

44هـ وولي الجزيرة لابن الزبير سنة 68هـ، وولي حرب الأزارقة وغيرهم من الخوارج ثم ولي خراسان. توفي غازيًا بمزو الرُود. وكان جعل الأمر من بعده ليزيد بن المهلب على إمرة خراسان؛ فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان.

ثم ختمها الهذلي بذكر قبيلة قيس، فقال:

(وهل كان في بني قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود في قيس البصرة الذي يقول له الشاعر⁽¹⁾؟)

أَنْتَ الْجَوَادُ بِنُ الْجَوَادِ الْمُخْمُودُ

سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودُ

هذا والدُّ المنذر بن الجارود العبدي. (كان سيّدًا جوادًا شريفًا. ولي إصطخر لعلّي ثم ولي ثغر الهند من قبل عبيد الله بن زياد؛ فمات هناك سنة إحدى وستين وله ستون سنة)⁽²⁾.

أما جدّ الحكم، فهو الجارود بن حنّش بن الحارث، من الصحابة، رضي الله عنه. قال ابن حزم في جدّه: (له صحبةٌ ومكانةٌ من النبي، رضي الله عنه، ومن أبي بكرٍ وعمر، رضي الله عنهما. وكان فاضلاً في الإسلام. وله بالبصرة عقبٌ، لهم شرفٌ وحالٌ عالية. وكان للجارود من الولد: عبد الله بن الجارود - يُلقَّبُ بظئر العناق لقصره. قتله الحجاج لخروجه عليه يوم رُستقاباذ - والمنذر بن الجارود - ولي إصطخر لعلّي بن أبي طالب، رضي الله عنه - وحبیبٌ ومُسلمٌ وغياثٌ، بنو الجارود)⁽³⁾. ثم تحدّث عن الحكم بقوله: (ومنهم أبو غيّلان الحكم بن المنذر بن الجارود، سيّد عبد

(1) هو عبد الله بن الأعمور الراجز المعروف بالكذاب الجرّمازي. ترجم له ابن قتيبة (ت276هـ) في معجمه الشعر والشعراء 162 وأورد فيها بعض ما مدح به الحكم، كالآتي: (من جيّد رجزه قوله للحكم بن منذر بن الجارود: يَا حَكْمُ بْنَ الْمُنْدِرِ بْنِ الْجَارُودِ ○○○ سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكُمْ [كذا] مَمْدُودُ ○○○ رَيْبَتِ [كذا] فِي الْجُودِ وَفِي بَيْتِ الْجُودِ ○○○ وَالْعُودُ قَدْ يَنْبُتُ فِي أَصْلِ الْعُودِ). يُقابل جمهرة أنساب العرب (لابن حزم) 270.

(2) تاريخ الإسلام ط7/256 (111).

(3) جمهرة أنساب العرب (لابن حزم) 279.

القَيْس. وفيه يقول الكذّاب الحرمازي:

يَا حَكَمُ بِنُ الْمُنْدِرِ بْنِ الْجَارُودِ
سُرَادِقُ الْمَلِكِ عَلَيْكَ مَمْدُودُ
نَبَتٌ فِي الْجُودِ وَفِي بَيْتِ الْجُودِ
وَأَلْعُودُ قَدْ يَنْبُتُ فِي أَصْلِ الْعُودِ

يُكْنَى أَيَا غِيلَانَ. مات في حبس الحجاج الذي يُعْرَفُ بِالْيِمَاسِ⁽¹⁾.

فالحاصل أنّ الهذليّ قد آستعرض نخبة أربعة من رجالات أهل البصرة الذين يفتخرون بهم لما لهم من أدوار جلييلة ومواقف حميدة ومشاركات مشهورة في تاريخ البصرة ذاتها وفي تاريخ الفتوحات الإسلاميّة في الشرق، وجعل الشعر دليله الأقوى المصدّق لما أدلى به من تفاخر بحقّهم لكونه شائعاً رائجاً في الأوساط المحليّة، ممّا يحول دون إنكاره أو ردّه أو تكذيبه. بالمقابل لم يذكر أثناء مفاضلته شخصيات كوفيّة توازيها في الأدوار والبطولات، لا تجاهلاً وإغفالاً، وإلاّ لجاؤا ردّ المنافس المخاصم عليه فوراً دون تردّد وبنبرة شديدة. وهذا لم يحصل، كما جاء في النصّ (فانقطعوا كلّهم)، إذ كان لكلام الهذليّ وقع شديد في أنفسهم، كأثر الأجوبة المسكتة.

بهذا المقطع آنتهت هذه الجولة التفاضليّة؛ فكانت الهزيمة لأهل الكوفة فاجعة مريّة، بينما كانت الغلبة فيها لأهل البصرة باهرة قويّة إلى حدّ أنّها جعلت الخليفة يضحك بحرارة مُبْدِيّاً عن دهشته من قوّة هذا الانتصار: (وضحك السقّاح حتّى ضربَ برجله وقال: والله ما رأيتُ مثلاً هذه الغلبة قطّ).

(1) جمهرة أنساب العرب (لابن حزم) 279.

الخاتمة:

هذه المفاخرة واحدة من المفاخرات البلدانية التي كان تجرى بين الأوساط المحلية والمحافل الرسمية بحضور بعض الخلفاء أو الأمراء أو الولاة، ولدت أدبًا مميزًا، تعود بواكيره إلى صدر الإسلام، أصبح قائمًا بذاته، يحظى بخصائص فنية، نحو توظيف صيغة التفضيل (أفعل) التي تلازم كثيرًا من مقاطع المفاخرة، واستخدام أسلوب العطف، عطف الجمل والأوصاف، بكثافة غرض تعدد المناقب والمحاسن أو المثالب والمساوي.

يمتاز هذا الأدب، أدب المفاخرات البلدانية، عن غيره من الآداب، نحو أدب المناظرات، بأنه ينبني على غيره من الآداب والعلوم، يستوحى منها معلوماته الأساسية ومواده الخامة ويستلهم منها رموزًا وشخصيات وأحداثًا، ثم يصهرها في قالب نثري. في ذلك تكمن قيمته الأدبية، لأنه يحسن توظيف أحداث تاريخية (علم التاريخ) مع رموزها وشخصياتها وتفاصيل عن تضاريس البلدان (علم الممالك والمسالك) وساكنيها من الجماعات (علم السكان) والقبائل (علم الأنساب) ومعلومات عن طبيعة الأجواء المناخية والأوضاع الاقتصادية والمستويات العلمية والأحوال الدينية والاجتماعية في البلد الواحد، كل ذلك في قالب نثري مؤلّد عبر النوعية.

في ذلك إثراءً كبيران: إثراءً لغويًا للمعجم العربي لما يرد في المفاخرات من ألفاظ فريدة لأجل المبالغة والإفراط في التصوير والتوصيف، سواء كان للإشادة والاستحسان والتحميد والتمجيد أو للإساءة والإقذاع والتسفيه والذم، ثم إثراءً بلاغيًا لما يوظفه في خطاب المفاخرة من محسنات لفظية وصور بلاغية.

ثبت المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، أبو الحسن عزّ الدين عليّ بن محمّد بن عبد الكريم الجزريّ (555-630/1160-1233). الكامل في التاريخ. تحقيق: عبد الله القاضي. راجعه وصحّحه: محمّد يوسف الدقاق. 10 مج ومجلّد الفهارس. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1987/1407.
- ابن الجزريّ، أبو الخير شمس الدين محمّد بن محمّد بن محمّد الشافعيّ (751-833/1350-1429). غاية النهاية في طبقات القراء. 2 مج. عُني بنشره: ك. برگشتريسر. القاهرة: مطبعة السعادة، 1932/52-1351-33.
- ابن حزم، أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد الأندلسيّ الظاهريّ (384-456/994-1064). جمهرة أنساب العرب. نشر وتحقيق وتعليق: إ. ليفي بروقنسال. القاهرة: دار المعارف، 1948/1368.
- ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح شهاب الدين عبد الحيّ بن أحمد بن محمّد العكريّ الدمشقيّ (1032-1089/1623-1679). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديث: عبد القادر الأرنؤوط. حقّقه وعلّق عليه: محمود الأرنؤوط. 10 مج. ط.1. ومجلّد الفهارس. دمشق/ بيروت: دار ابن كثير، 1986/1414-1406-1993، 1995/1416.
- ابن قُتيّبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيّبة الدينوريّ (213-276/828-889). الشعر والشعراء - طبقات. ط.3. بيروت: عالم الكتب، 1984/1404.
- عيون الأخبار. 4 مج. ط.1. القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1925/49-1343-30.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقيّ (701-774/1302-1373). البداية والنهاية. 14 ج. 7 مج. بيروت/ الرياض: مكتبة المعارف/ مكتبة النصر، [87-1386] / 1966-67.

الأهوازي، أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم (362-446/972-1055). كتاب الإقناع. يُنظر حمدان، عمر يوسف عبد الغني.

البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي (277/890). كتاب المعرفة والتاريخ. رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي. تحقيق: أكرم ضياء العمري. 3 مج. ط. 2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1401/1981.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (279/892). فتوح البلدان. حققه وشرحه وعلّق على حواشيه وأعدّ فهرسه وقدم له: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع. بيروت: مؤسسة المعارف، 1407/1987.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (163-255/780-869): البيان والتبيين. بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. 4 ج. / 4 مج. ط. 7. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418/1998. ----- رسائل الجاحظ. بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. 4 ج. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1384/1964.

حمدان، عمر يوسف عبد الغني. الأهوازي وجهوده في علوم القراءات ومعه قطعة من كتاب الإقناع وقطعة من كتاب التفرّد والاتفاق للأهوازي (362-446هـ/972-1055م). ط. 1. عمان/ بيروت: المكتب الإسلامي/ مؤسسة الريان، 1430/2009.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (673-748 / 1274-1348): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. 51 مج. ط. 1. بيروت: دار الكتاب العربي، 1407-1424/1987-2004 (ط. 2-75).

----- سير أعلام النبلاء. حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط [وغيره]. 25 ج. / 25 مج. ط. 1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1401-1409/1981-1988.

----- العبر في خبر من غبر. حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. 4 ج. / 4 مج. [الجزء الرابع ذيول العبر في خبر من غبر [ذيلان: الأول

للذهبي من سنة 701هـ إلى 740هـ، والثاني للحُسَيْنِي (765هـ) من سنة 741هـ إلى 764هـ]. بيروت: دار الكتب العلميّة، [1985/1405].

----- . معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار. تحقيق: طيّار آلتي قولاج. 4مج. ط.1. إستانبول: وقف الديانة التركيّ، 1995/1416.

الرّكُلِيّ، خير الدين بن محمود بن عليّ (1310-1396/1893-1976): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. 8مج. ط.9. بيروت: دار العلم للملايين، [1410]/1990.

السيوطيّ، أبو بكر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد الخضيريّ (849-1505-1445/911). تاريخ الخلفاء. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1988/1408.

عبد القاهر البغداديّ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمّد الأسفرائينيّ (1037/429). الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. دراسة وتحقيق: محمّد عثمان الخشت. القاهرة: مكتبة ابن سينا، [1988/1409].

العبد الكريم، عبد الكريم بن عبد الله. "خطاب المفاضلات النثرية بين المدن والأمصار في كتاب معجم البلدان لياقوت الحمويّ ت626هـ: دراسة الدوافع والأنماط الشكلية والسّمات الفنّية." مجلّة جامعة أمّ القرى لعلوم اللغات وآدابها، 5 (2011/1432): 135-97.

العجّليّ، أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح (182-797/875). تاريخ الثقات. بتريّيب الحافظ نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثميّ المتوفّي سنة 807 وتضمينات الحافظ ابن حجر العسقلانيّ. وثّق أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد المعطي قلعيّ. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1984/1405.

- القُضَاعِي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر (1062/454). كتاب الإنباء بأنبياء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء المعروف بتاريخ القضاعيّ. ط.1. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا/بيروت: المكتبة العصرية، 1998/1418.
- المزّي، أبو الحجّاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف (654-742 / 1256-1341): تهذيب الكمال في أسماء الرجال. 35 مج. ط.1. بيروت: مؤسّسة الرسالة، 1992/1413.
- النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد (380/990). الفهرست. اعتنى بها وعلّق عليها: إبراهيم رمضان. ط.1. بيروت: دار المعرفة، 1994/1415.
- اليغموريّ، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ (673/1274). كتاب نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء. تأليف أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المَرْزُبَانِيّ (297-384/910-994). اختصار الحافظ اليغموريّ. عني بتحقيقه: زُودُلْف زلهاييم. فيسبادن: فرانتس شتاينر، 1964/1384.

